

العلمانية والمنظور الإسلامى الإيمانى

د / عبد الرزاق قسوم (*)

مداخل :

ان التحليل الموضوعى العميق للواقع الفكرى والعقائدى لأمتنا العربية الإسلامية يبرز مجموعة من العوامل ، هى التى تحدد فى مجملها الطابع الهام الذى يطبع تأزم هذا الواقع ، ويلج بقوة على تعقد الاشكالية التى تنطلق منها كل معالجة لقضايا التأزم .

ولعل هذه العوامل هى التى يمكن استخدامها كمفاتيح لازالة الغبار الاشكالية المنهجية لتبيين معالم الموضوع المقترح علينا للبحث وهو « العلمانية والمنظور الإسلامى الإيمانى » .

ان التأمل البسيط لتركيب عنوان الموضوع يقودنا الى التسليم بحقيقة التعقد التى تصنع الموضوع ويمكن التركيز على أهم العوامل التى هى بمثابة الأدوات المساعدة لفك الاشكالية ، وهى :

١ — التباينية القائمة بين مقولتى العلمانية ، والمنظور الإسلامى الإيمانى مما ينجم عنه التسليم بوجود ازدواجية تضاد هى الى يشكلها طرفا الموضوع .

٢ — غموض المفاهيم الناجمة عن وضع هذه التباينية التى هى نتاج ما نستخدمه بدون حذر من معانى سائدة فى عصرنا اليوم .

٣ — فقدان الدقة فى تحديد المصطلحات الفكرية بسبب تفتحنا بلا حدود واستعدادنا المطلق لتلقى القوالب الفكرية الجاهزة التى صنعت خصيصا لمجتمعات ، تختلف فى طبيعتها ومميزاتها العقائدية وسماتها القومية عن كل ما يطبع مجتمعنا ، فحاورنا وضعها على هياكلنا المجتمعة بالرغم من معطياتها الخاصة .

(*) استاذ الفلسفة — بمعهد الفلسفة جامعة الجزائر .

٤ — التحلى بالعاطفة فى التصدى لقضايا مصرية كهذه فى محاولة البحث عن علاج لأعراض أزماتنا المتعددة .

وفى ضوء كل هذا يبدو أنه لا مجال للتصدى بحكمة وشجاعة لتشخيص أدواء واقعنا الفكرى دون تجاوز عناصر هذه الاشكالية بتحديددها ، وتوضيحها ، وارجاعها الى ينباع نشأتها للنفاذ بعد ذلك الى صميم ما تطرحه المشكلة الناجمة عن تناول مثل هذا الموضوع بالتحليل والبحث .

وفى هذا السياق ينبغى تناول مدلولى كل من « العلمانية » و « الدين » بمنظوره الاسلامى :

١ — العلمانية :

ان العلمانية تسمية ذات وقع خاص فى الاذن والعقل ، خرجت على الناس فى عصر ما سُمى بالنهضة الأوربية ، باعتبارها رد فعل أمام عجز المفاهيم الدينية الكنائسية آنذاك عن مواكبة النهضة، ونتيجة للحملة العدائية الاضطهادية التى شنتها الكنيسة الغربية على العلم والعلماء ، لذلك حمل دعاة العلمانية لواء التحدى العنيف للدين مطالبين باقصائه البتة عن ميادين الفكر والمجتمع على السواء .

ولعل ما زاد من بريق ولمعان هذه المقولة الفلسفية أنها اتخذت العلم أساسا تعتمد عليه فاشتقت مدلولها منه مع ما فى هذا الاشتقاق من أخطاء فادحة مما يعتبر تشويها خطيرا وتزييفا واضحا لمعنى العلم .

ان القاعدة الأساسية التى تقيم العلمانية عليها دعائمها انها تتمثل فى فصل الدين عن الدولة ، ضمن مخطط شمولى هدفه البعيد اقضاء الدين عن كل ميادين الفكر والحياة بل شطب الدين والفائه كليا من مختلف طوابع الحياة والمجتمع والفكر (١) .

ولتطبيق هذا المنهج حاول بعض دعاة العلمانية التأكيد على أن العلمانية بمنظورها الالحادى انما هى دعوة الى الاعتماد على الواقع الذى تدركه الحواس ونبذ كل ما لا تؤيده التجربة ، وبالتالي التحرر من العقائدية الغيبية التى هى عندهم ضرب من الأوهام ، ومن العواطف بكل ضروبها وطنية كانت

أو دينية زاعمة أنها تضلل أصحابها ، وتحول بينه وبين الوصول الى أحكام موضوعية محايدة (٢) .

ان التسليم بهذا الحكم العلماني يفضي الى نتيجة خطيرة تكشف مدى زيف المنهج الذي تنبأه دعاة هذا الاتجاه حيث يبدو أصل الاشتقاق في مصطلح العلمانية ، مدلولاً مظلوماً في معناه ، ذلك أن العلم في مدلوله الدقيق الصحيح لا يمكن أن يقبل بمثل هذا المنهج الناقص ، وقصارى القول أن ما يسميه هؤلاء الملاحدة بالعلم التجريبي أن هو الا جزء بسيط من معنى أشمل وأعم لمدلول العلم .

والعلم التجريبي القائم على المحسوس لا يرى أحييته في استكشاف عالم الغيب أو الميتافيزيقا ، بل يسلم بشهادة علمائه ان عالم الغيب موجود ولكن العلم التجريبي لا يملك الوسائل والأدوات التي تمكنه من الكشف عن حقيقة عالم الغيب ولذلك فهو لا يملك أن يقول فيه الكلمة الفاصلة .

فإذا أخذنا مدلول العلم بمنظوره الاسلامي وجدنا أن العلم في معناه الشمولى يمثل صيغة منتهى المعانى ، اذ أنه يتسع ليشمل علم الحياة الدنيا والآخرة فيتصدى لعلاقة الانسان بالكون والله .

أما محاولة اختزال مدلول العلم لحصره ضمن ميادين الطبيعة والرياضيات وكل ما يقع تحت الحس والتجربة والمشاهدة فهذا منهج يلغى معنى العلم الواسع ليحصره ضمن دائرة المدلول الذى حدده مفهوم العصر الحديث للعلم .

ومن هنا جاز القول بأن ادعاء نسبة العلمانية للعلم، قول فيه كثير من التجاوز ، لأن العلمانية ليست في حقيقتها ناتجا من نتاج العلم بل هى أقرب ما تكون الى الفلسفة .

ان العلم ميدانه المخابر والمعامل والمصانع ، بينما العلمانية فى تناولها لعلاقة الانسان بالدولة والله تصبح أقرب منها الى الفلسفة منها الى العلم لأنها تعنى بالايديولوجية التى تعمل على تحديد علاقة الدولة بالدين .

وبهذا المفهوم أمكن القول بأن العلم واقع قائم على حساب وتجربة وملاحظة بينما العلم نظرة عقل نافذ ورأى باحث يخطئ ويصيب .

ومن هذا القبيل أيضا جاء قول بعض العلمانيين برفضهم اعتبار الدين أساسا لحياة الجماعات البشرية ، أو حتى أساسا من أسس انقومية .

ان العلمانية عندهم هي دراسة الانسان والمجتمع كما تدرس الأشياء بشكل موضوعي وأن الكون مستقل في ذاته تفسره القوى والقوانين التي يتشكل منها دستور ، فلا يحتاج الى أية قوة خارجية يستعين بها في تفسيره ما يحدث فيه ، وطبيعي ان العلمانية بمفهومها الخاطيء للكون والمجتمع والانسان انها تبني منهجا لتفسير الحياة ، ، والمجتمع أساسه النظرة المادية . والحقيقة انه من السهل التسليم بتهافت هذه النظرة لأنها مخالفة لطبائع الأشياء بسبب اكتفائها بالجانب المادي وحده أو تجاهل الجوانب الأخرى للانسان وللطرفة ، ولنهج المعرفة وهو ما يعتبر مناقضا لأهداف المنهج العلمى الذى يدعى البحث عن الانسان بجميع جوانبه ومقوماته .

(١) أسس العلمانية :

لعل من قبيل التجاوز التسليم بوجود أسس تقوم عليها العلمانية ذلك أن هذه الأسس ان هي الا خلاء وعدم ، حيث أن القاعدة الأولى للعلمانية هي الالحاد .

والالحاد فى أبسط تعريف له هو موقف من الألوهية يتسم بالرفض والخلاف بين الالحاد والكفر ، ان الالحاد ينطلق أساسا من الغاء أى وجود لله ويبنى كل سلوكه على هذا الأساس ، فى حين أن الكفر سلوك لا يعنى رفض الألوهية ، ولكنه يفعل كما لو كان الله غير موجود دون الاعلان عن عدم وجوده .

فالالحاد النظرى ، رفض مذهبي لله وهو ما تعتد عايه النظرة الالحادية التى تشكل حجر الزاوية فى المفهوم العلمانى .

الاساس الثانى للعلمانية هو موقف ينبثق أيضا عن الموقف الأول وهو بناء نظام مجتمعى سياسى قاعدته رفض الحاكمية الالهية ، لذلك فان الانسان فى هذا النظام الالحادى يتحلل من القيم والمقدسات فتختنى لذلك كل معانى التسليم بوجود قوة متعالية ، هى واهبة القيم ومعانى الخير والمحبة والسلام ، والتى تستظل بها المجتمعات المؤمنة وتمثل الحافز الطبيعى والنفسى لدى الانسان على فعل الخير وحسن التعايش مع بنى جنسه .

ولقد نجمت عن هذه المقدسات التى تضعها العلمانية فى سياق بنائها الهيكلى نتائج أدت الى منح الانسان خصائص الالهوية باطلاق حرياته فى الاطلاق وفى المعاملات الاقتصادية وفى الحكم السياسى .

ان الميزة الانسانية للعلمانية اذن تكمن فى اصفاء الطابع البشرى على كل القوانين والقيم ، فى مقابل السمة الرئيسية للمنظور الايمانى الاسلامى وهو اصفاء الطابع السماوى على قوانين التشريع والمعاملات بأوسع مدلولاتها .

من هنا جاز القول بأن أسس العلمانية هى أسس مهتزة لأنها لم تجد التربة الصلبة التى تقوم عليها فقامت على العدم ، وعلى الخلاء وعلى السلب والنفى بدل الوجود ، والمأ والإيجاب والإيجاد .

(ب) العلمانية والاستيلا ب :

ثالث الاسس التى تقيم عليها العلمانية هياكلها فى مجتمعاتنا انما هو غرابة هذا المفهوم عن واقعنا لأنه مفهوم وضع خصيصا لمجتمع تحكمه الكنيسة ، ولكنه تسلل الى واقعنا الفكرى والعقائدى فى غفلة منا وتحت وطأة الاستيلا ب أو الانسلا ب الفكرى الذى عانينا منه وما نزال ، فالغاء الاله ورفض الدين وتعليقه وسحبه من قضايا المجتمع البشرى كل هذا انما نشأ ونما فى مجتمع المسيحيين عندما كانت الكنيسة هى الحاكمة وحدها وما نجم عن ذلك كله من أحكام تعسفية أحدثت رد فعل عنيف تمثل فى طرح فكرة الالحاد كبديل للايمان والمعتقد .

ويتحمل مسؤولية حمل هذه المفاهيم الى واقعنا العربى الاسلامى ضحايا الغزو الثقافى الفكرى فى مجتمعاتنا من مستشرقين وهم دعاة الايديولوجيات المادية الواغدة من الشرق الشيوعى الملحد ، ومستغربين وهم حملة أفكار الغرب الاستعمارى الرأسمالى المتسلط على الأفراد والشعوب .

ان هؤلاء المنسلبين قد حاولوا متأثرين بتيارات الايديولوجيات المختلفة سحب هذا المنظور العلمانى على واقعنا الاسلامى محاولين بذلك تحطيم عقل الانسان العربى المسلم واخلاء ذاتيته من جوهرها الأساسى وهو العقيدة .

(ج) فراغ العلمانية :

انه بتحليلنا لمدلولات العلمانية وفقا لما سبق ذكره .. وباستعراضنا لأهم معطياتها واسسها يتجلى لنا زيف المصطلح في استخدامه شكلا ومضمونا فلم يعد للعلمانية من خلال الشعارات التى تلوح بها أى سند يستقيم به منطقها فأمرغت اذن من محترها الصحيح كاشفة عن زيف مفهومها .

ان هذه النتيجة التى أمكن الوصول اليها قد أثبتت خطأ محاولة وضع المذهب العلمانى كمقابل للمفهوم الدينى الصحيح ، وخاصة منه المفهوم الاسلامى .

فقد أصبح الالحاد ظاهرة معقدة تطبع معالم حياة العصر ، وبالتالي فقد أفرز هذا المصطلح فى المجتمعات التى نادت به مجموعة من الأعراض السلبية لتأزم المجتمع ، لعل أبرزها كما يقول الوجوديون يتمثل فى القلق والسأم والغثيان وهى كلها أفرزات تنبئ عن شيوع ظاهرة التأزم فى المجتمعات المعاصرة وتغلغلها فى الواقع الانسانى .

والملاحظ ان كل الجهود العلمية التى بذلت لاعطاء مدلول الالحاد معنى ما يقبله المنطق ويسلم به العقل ، كل هذه الجهود قد باءت بالفشل فلم تفلح مساعى المائرين فى تغليف مقولة الالحاد بالطلاء العلمى وتهافتت بذلك شعاراتهم القائمة على مبدأ لا وجود له وأن الحياة مادة .

وكذلك كان مصير أصحاب نظرية النشوء والارتقاء الذين حاولوا فلسفة أصل الانسان ومصيره باخضاعه لمبدأ الضرورة المادية كشئ من الأشياء يواكب بكيفية آلية تطور الحياة دون تدخل القوة السماوية فى ذلك . فلتسمع الى أحد المدافعين عن هذا المبدأ حين يتصدى للتبشير بنظرية النشوء والارتقاء الالحادية فيقول : « من الذى علم الكتكوت أن يكسر البيضة

عند أجزائها » .. ؟

ومن الذى علم الطيور الهجرة عبر البحار والصحارى الى حيث تجد الغذاء الأوفر والجو الحسن والى حيث تتلاقى وتتوالد .. ؟ .

ومن الذى علم دودة القز أن تنسلخ من ثوبها مرة بعد أخرى ثم تنزوى فى ركن لتبنى لنفسها شرنقة من حرير تنام فيه ليلالى طويلة مثل أهل الكهف ثم تخرج منها فراشة بيضاء تحمله (٣) ، ويوجب هذا المفكر على الغازه هذه بقوله : (هذا الانتقال المنظم الدقيق من نمط فى الخلق الى نمط آخر ، هذا التطور من دودة الى حشرة الذى تتعاون فيه الألوف المؤلفة من الخلايا يحدث تلقائيا بلا معلم) (٤) .

ان المعلم هو الفطرة المرشدة المغروسة فى المادة الحية بطريقة لايعرفها أحد (ولو أضاف أن هذا الأحد هو الله لانتهت خرافته العلمية الى حقيقة كونية ثابتة) .

هكذا اذن فليس الدين وحده هو الذى قضى على خرافة العلمانية كما تقدمها نظرية النشوء والارتقاء . . وانما العلم أيضا الذى استخدمه أصحاب هذا المذهب قد خذلهم رغم تاليهم وتقديسهم له .

٢ — المنظور الإسلامى الإيمانى :

(١) الإيمانية :

ان أول ما ينبغى الوقوف عنده فى بداية تحليلنا للجانب الثانى من الموضوع وهو المنظور الإسلامى الإيمانى هو الالاح على الصفة الإيمانية للمنظور الإسلامى ، ذلك ان التأكيد عليه يسهم فى تبديد مجموعة من الغيوم والخيوط الغامضة التى قد تزيد من ضبابية الموضوع .

فالإيمانية كخاصية عندما تصاحب المنظور الإسلامى ، كمقابل لمذهب العلمانية تزيل من الأذهان ما قد يعلق بها من سطحية فى تصور الفهم الإسلامى لله والكون والانسان ، ذلك ان المقصود بالمنظور الإسلامى هنا هو التعبق فى

معنى الإسلام كعقيدة وكإيمان مما يزيل أى فهم خاطئ للإسلام أو أى سلوك تقليدى يحسب على الإسلام ، فكل ذلك لا يرقن الى مستوى المنظور الإسلامى الإيمانى .

والمعنى الثانى المستخلص من مفهوم الإيمانية المصاحبة للإسلام يتمثل

في ابعاد معنى الاسلام من أن يختزل فيتحول الى مجرد فلسفة انسانية منهجها الجدل بأية وسيلة كانت تحت غطاء التعصب للاسلام دون الغوص في معانيه الصحيحة ودون الاقتناع بسماوية قوانينه ومبادئه .

لذلك كان لابد من التنبيه هنا الى أن المنظور الاسلامي الایمانی يلغى كل معنى للجدل العقيم في مناقشة أى مذهب ، ويسمو في تحليله عن السطحية في الفهم للاسلام ، هذه السطحية التي غالبا ما يصاحبها ضيق في الأفق وتعصب لا يتماشى والمنطق الاسلامي في أبعد وأعمق مدلولاته .

(ب) المقارنة الخاطئة :

من الأخطاء المنهجية السائدة في حياتنا الفكرية اللجوء دوما الى محاولة اثبات الوجود الذاتي بالمقارنة الى الغير ، وتزداد خطورة نتائج هذه الأخطاء عندما يتعلق الأمر بالادولوجيات البشرية التي غالبا ما توضع كمقابل للقوانين السماوية . ان هذا الخطأ الشائع نلتقى به في حياتنا الفلسفية عندما يتعلق الأمر باثبات هويتنا وتحديد انتمائنا الفكري ، فنلجأ الى هوية وادولوجية الآخرين ، لنتمسك في ضوءها مدى صحة أصلتنا ، وقيمة شخصيتنا .

وندرك هذا الخطأ المنهجي أيضا في المجال السياسي ، اثناء بحثنا عن نموذج للدولة التي تستجيب لمطالباتنا الاجتماعية والحضارية فننشد خصائصها في النموذج الغربي أو الشرقي لنمطية الحكم .

وثالثة الاثافي وأشدّها خطورة ، هو أن نعتمد الى التدليل على صدق عقيدتنا أو صحة إيماننا ، باللجوء الى المقارنة بين هذه العقيدة الاسلامية والايمانية السماوية وبين المذاهب الالحادية المادية البشرية .

فالمنظور الاسلامي الایمانی كما هو في حقيقته منظور قائم على تقنين الهی فهو اذن الكمال المطلق (الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) تنزيل من حكيم حميد في حين أن العلمانية منظور وضعي تعاونت على وضعه عقول وأفكار بشرية متعددة الأجناس والعصور ، فكانت النتيجة تبعا لذلك أننا عدنا الى وضع المقارنة بين القانون الالهي والقانون البشري .

وحتى في تسليمنا — بداهة — بأن القانون الالهي أفضل من قانون البشر .
فاننا نكون قد أجبنا حق الله ، ونزلنا بقيمته نتيجة ما تؤدي اليه المقدسات
الفاصلة منطقيا التي وضعناها لتنظيم المقارنة الفاسدة .

وقديما قال شاعرنا :

الم تر أن السيف يزرى بـقـدره

إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا

فمجرد ايجاد المقارنة بين الدستور السماوي والدستور الوضعي
فيه اجحاف بالأول واعلاء من نتيجة الثاني .

يضاف الى ذلك كله ما يستنتج من هذه المقارنة كعقيدة نقص يلتصق
بدعاة هذا المنهج الفاسد من الناحية العلمية .

لذلك فان محاولة ايجاد التقابل بين العلمانية كمذهب الاحادي مادي
بشرى ، وبين المنظور الاسلامي الايماني كدستور الالهى يمثل قمة الخطأ
المنهجي الشائع ، وليس معنى هذا أننا ضد التصدى بالدرس والتحليل
لكل المذاهب البشرية حتى التي تناصبنا العداء ، ولكن المطلوب منهجيا أن
نضع كل عقيدة ، وكل اديولوجية في سياقها الصحيح ، أثناء تحليلنا واصدار
احكامنا بشأنها . من هذا المنظور فقط أمكن تصحيح الخطأ الذي نسلكه
في فكرنا وفي حياتنا الثقافية والعلمية .

(ج) أسس المنظور الاسلامي الايماني :

يمكن القول بوجود أسس هي التي يقوم عليها المنظور الاسلامي
الايماني ولا يختلف اثنان في التسليم بها :

أولها : أن المنظور الاسلامي الايماني يقوم على تصور تفاؤلي لحقيقة
الانسان ، ويندرج تحت هذا التصور الاعلاء من قيمة الانسان ورفع مكانه
وتمكنه من العيش في ظل العزة والكرامة بوصفه أفضل المخلوقات على
الأرض ثم بحكم خلافته الله في هذا الكون مصداقا للآية الكريمة « ولقد كرّمنا
بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير
من خلقنا تفضيلا » (٥) .

ولعل هذه الحقيقة الانسانية هى التى يشير اليها القرآن عندما يعلن :
« **لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم** » . ان الاسلام بهذا المفهوم قد سما
بالكائن البشرى الى منزلة لم تكنه منها اية اديولوجية أو أى مذهب ، حتى
التى حاولت أن تحل الانسان محل الله فخلعت جملة أصنافا من الأوصاف
كالحيوان الاقتصادى والحيوان العاقل والحيوان الضاحك والحيوان
المحب ، ولكنها لم تمنحه هذا اللقب الأسمى الذى وهبه له الاسلام بأن
جعله خليفة الله فى الأرض .

ثانى أسس المنظور الإسلامى الإيمانى هو العقيدة ، فالاعلاء من قيمة
الانسان فى الاسلام واحلاله محل الخلافة الالهية قد حددت له رسالة
فى الحياة هى الأمانة التى تستمد قوتها من العقيدة . فالاسلام قبل أن يكون
نظاما، وقبل أن يكون سلوكا، وقبل أن يكون منهجا كان عقيدة هدفها الأساسى
تمتين العلاقة بين الانسان وخالقه وفقا لايمان مطلق بالله ، يجعل الانسان
يثق فيما وضعه الله من قوانين فى الأخلاق والسلوك والمعاملات الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية . ان هذه العقيدة هى التى تستمد أصولها
وخصائصها من القرآن والسنة النبوية الصحيحة ويتم التسليم بها بكل
قناعة بعيدا عن كل اكراه أو تعصب أو حيل الناس بالقوة .

ثالثا : المنهج :

يقوم المنظور الإسلامى الإيمانى على منهج يناقض تماما المناهج
الوضعية التى تكتفى بجانب واحد فى الانسان ، كالحواس أو الماديات وتلفى
باقى الجوانب على أهميتها مثل الجانب الروحى والوحى والايمان بالله وعالم
الغيب ، ان المنهج الإسلامى على العكس اذن يستخدم مصادر للمعرفة
متعددة وأهبها الوحى وهو أسمى المصادر ومنها التاريخ الذى يعده الاسلام

مصدرا هاما من مصادر المعرفة ، اذ به يمكن الكشف عن سنن الله فى الكون
وقوانين الحركة للحضارات والأمم ، وهناك أيضا النفس الانسانية وكل
ما يرتبط بالانسان فى تكامله كالكون والآفاق « **سفرهم آياتنا فى الآفاق وفى
أنفسهم حين يتبين لهم أنه الحق** » (١) . يضاف الى هذه المصار كلها عامل
آخر فى المنهج الإسلامى . هو المنهج التجريبى العلمى . فالاسلام لا يرفض

المنهج التجريبي ولكنه لا يعتمد كـمصدر وحيد للمعرفة ، لأن المنهج الإسلامى منهج متكامل يستوعب كل العوامل والمصادر التى تمكن من الوصول الى مختلف الأبعاد (٧) .

فإذا كانت المذاهب الأخرى قد انطلقت فى معادلاتها إما من فكرة الالغاء أو من فكرة الشك فى وجود الاله فان المنهج الإسلامى يقوم على مبدأ الإثبات .

وهكذا يمكن وضع المعادلة التالية للتمييز بين المنهجين العلمانى والإيمانى الإسلامى ، فإذا كان المنهج العلمانى يقول : « أنا أرفض أو أنا أشك فأنا أذن موجود » فان المنهج الإسلامى الإيمانى يقول « أنا أؤمن فأنا أذن موجود » .

لذلك وجدنا فى تاريخ الفكر الإسلامى اتجاهات تولدت كرد فعل لموجة الأحاد والاباحية والانغماس فى الملذات وكل أنواع الفساد لتحدث نوعا من التوازن المفقود لدى الانسان بين مطالب المادة ومطالب الروح ، ولعل فى هذا السياق يمكن وضع التصرف الإسلامى الإيجابى كوسيلة للعلاج الفرد والمجتمع .

ان المنهج الإسلامى الإيمانى يمثل — فى نظرنا — خير علاج لمرض العصر الذى هو القلق الناتج عن طغيان الأحاد ، والذى ينطلق من الأحاد كما بينا أى من العدم ومن الفراغ وينطبق على صاحبه فى ذلك الوصف القرآنى حين يقول « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (٨) . ان منتهى ما يصل اليه العلم الحقيقى هو بداية الايمان الصحيح وهو ما يشير اليه القرآن بقوله « انما يخشى الله من عباده العلماء » (٩) .

ان المنهج الإسلامى يجعل من العلم قيمة أساسية من قيمة بها يمكن كشف مجهول أو استكناه معقول عن خير الانسان ومجتمعه ، وهو فى ذلك يحتوى كل مفاهيم العلم عند علماء مناهج البحث وتجاوزها الى ما هو أسمى وأعمق وأنبى ، فنتائج العلم فى منهج العلماء المحدثين هى نتائج احتمالية لا ترقى الى مستوى اليقين بينما يقدم العلم الإسلامى للانسان علما يقينيا يطمئن به القلب والعقل معا .

رابعاً : الفأاية :

ان المنظور الاسلامى الايمانى يجعل من سعادة الانسان والمجتمع وتكافلها وتنمية مختلف أبعادها الفأاية القصوى التى يهدف إليها ، لذلك نجد الاسلام يولى كل اهتمامه للمؤسسات الانسانية كالأسرة والمجتمع والدولة والقانون والأخلاق فىعمل على حمايتها وصيانتها، فالمنظور الاسلامى الايمانى ينظر الى الانسان والى المجتمع والدولة نظرة متكاملة لا نظرة انفصال وتمزيق . فالعناصر الأساسية للانسان والمجتمع كالدين والعلم والعقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة ، كلها عناصر تتكامل بالتقائها ولا تتعارض ، واذا بدأ نوع من التمزق والانفصام فى أعماق النفس الانسانية فذلك يتم نتيجة الوقوف عند عنصر واحد منها وإعلائه وإعتباره الأساس الوحيد دون باقى العناصر(١٠) .

يؤكد المنظور الاسلامى الايمانى كمبدأ على الأخلاق ممثلة فى السلوك والمعاملة فىشيع الفضيلة ويعمل على تنميتها لتكون أساس التعامل بين الناس ويوحى بالحب والأخاء بين الناس فىجعل المؤمنين كافة أخوة « **انها المؤمنون أخوة** » فىنبذ بذلك كل محائى الفحش والاستغلال والتماييز العنصرى أو العرقى أو الطائفى ، متجاوزاً ما أطلق عليه حديثاً حقوق الإنسان .

لذلك فانه ينبغى الحكم على الاسلام ونظرته للانسان والمجتمع من ينابيعه وأصوله ، لا من سلوك المسلمين المترجة بالعادات والتقاليد والأعراف وتعجبني فى هذا المجال كلمة للامام محمد عبده يميز فيها مبادئ الاسلام وسلوك المسلمين فىقول : « ولست أبالى اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام ، عندما بدأ الضعف فى صفوفهم وضيق الصدر من طبع الضعيف فذلك لا يلصق بطبيعة الاسلام ولا يخلط بطبيعته »(١١) .

فالإيمان الذى يقوم عليه المنظور الاسلامى وسيلة من وسائل تحقيق حرية الانسان فى تعامله مع الله ، ومع المجتمع ومع النظام السياسى الذى تمثله الدولة ويتجلى ذلك فى إلغاء الوساطة والوسطاء وجعل ميزان الخير والشر فى داخل أعماق الانسان ، أى فى القلب المسلم ، وتلك هى الحكمة الخالدة التى ضمنت للإسلام بقاءه وخنوده .

الخاتمة :

يمكن في ضوء ما سبق وكاستنتاج لما سبقناه من عناصر ، أن نعود الى التأكيد على ما يمكن التسليم به كنتائج وأهمها ما يلي :

١ — ان اخضاع كل من العلمانية والمنظور الاسلامى الایمانى للتجربة التاريخية يسلمنا الى مجموعة من المعطيات تبرز المميزات الأساسية للمفهومين من واقع التجربة المكتسبة وأهم هذه المعطيات فى نظرنا هى :

(ا) ان العلمانية لم تستطع حتى الآن أن تبني دولة موحدة قائمة على المنظور العلمانى موحدة متجانسة قوية .

فالاحظ أن تجربة الدولة العلمانية ما تزال حديثة نسبيا ، ولذلك لا مجال للحكم على ايجابياتها فى حين أن السلبيات أكثر من أن تعد أو تحصى .

(ب) بالمقابل قامت الدولة الاسلامية عدة قرون وأثبتت فى حقل التجربة مجموعة من الايجابيات أهمها الفتوحات العقائدية للقلوب والعقول واشاعة العلم والمعرفة وتوطيد دعائم المحبة والاخاء والعدل وايجاد الوحدة العقائدية بين مختلف اجزاء الدولة الاسلامية الواحدة الممتدة من طاجة الى جاكطة .

(ج) ان الاتصال الذى تم مع الثقافات والحضارات الأخرى قد أحدث لدى الاسلاميين وغير الاسلاميين انعكاسات مختلفة ففى حين هضم الفكر الاسلامى مختلف أنواع الفلسفات كاليونانية وغيرها أضاف اليها وأضفى على بعضها طابعه المميز قبل أن ينقلها الى المجتمعات والأجناس الأخرى وخاصة المجتمعات الأوروبية التى وقعت فى معظم الأحيان تحت تأثير الكنيسة موقفا معاديا ذهب الى حـد اضطهاد الفلاسفة والعلماء المتأثرين بهذه النظريات .

ان التطبيق الایمانى الاسلامى اليوم يعيش مدا خصيبا يتجلى فى هذه الصحوه الاسلاميه التى تلتقي بمظاهره ونتائجها فى كل منحنى من مناحى البناء والتنمية فى البلاد العربيه والاسلاميه فى حين نلاحظ صدودا واعراضا ورفضاً لكل ما هو علمانى أو دينى اسلامى ويتجلى هذا الرفض فى حالة

التيه والقلق والضياع التي تعيشها المجتمعات العلمانية بالذات الناجمة عن الطمأنينة المفقودة وسط معاناة اليأس والاستسلام .

٢ — النظرية المستقبلية للمفهومين :

ان الواقع السلبي للأمة العربية الاسلامية ليس مرده الى العامل الدينى بل على العكس من ذلك مرجعه الى عدم التطبيق السليم للمبادئ الدينية الصحيحة ومن ثم فان الخلاص يكمن مستقبليا في توعية الناس بالاسلام الصحيح وتنقية معتقداتهم وقناعاتهم من شوائب العادات والتقاليد ومن رواسب الغزو الفكرى والثقافى المستبد بعقولهم ، في حين ان الواقع السلبي للبلاد الغربية يعكس فشل التجربة العلمانية لديهم بسبب فقدان كل مثل أعلى لدى انسان هذه المجتمعات وربطها بالآلة المادية بعيدا عن كل قيم سماوية عليا وهو ما يمثل قمة المأساة الانسانية .

ان العلمانية محكوم عليها أن تتغير مستقبلا فتبحث لنفسها من منهج يحل محل الفكر الانسانية وامل مادية للتقليل من افداحة الخسائر ، والمجتمع الاسلامى — مدعو هو الآخر الى العناية أكثر بهذه الصلوة

بترشيدها وتوجيهها وتوعيتها كي تتخلص من بعض المفاهيم الخاطئة وتعكس نقاوة الاسلام وصفاء وسمو مبادئه الانسانية والمجتمعية .

ان الاسلام لا يرفض العلمانية التى تبقى في مجال العلم باحثة عن اليقين ، وانما الاسلام لايقبل علمانية تقوم على تجاوز العلم الى ميادين غير ميادينه فتحكم الهوى ، والهوى لايستند الى دليل لأنه مدعاة للضلال

« ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

يمكن اذن الاعتماد على المنظور الايمانى كدعامة أساسية لبناء المجتمع الاسلامى السعيد، ومع الاستفادة ببعض مافى المنظومة العلمانية من ايجابيات تضاف في ميدان العلم التجريبي الى المجال العلمى الاسلامى الواسع الشامل، وذلك في نظرنا قمة ما يصبو اليه الانسان في توقيانه وطموحه .

الهوامش

- (١) انظر في ذلك كتاب أنور الجندى ، سقوط العلمانية بيروت — دار الكتاب اللبناني ١٩٧٣ ص ٢٤ .
- (٢) المرجع السابق .
- (٣) محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الاسلام ، الجزائر ، دار الشهاب ص ٥٠ .
- (٤) المصدر السابق .
- (٥) سورة الاسراء الآية ٧ .
- (٦) سورة فصلت الآية ٥٤ .
- (٧) أنور الجندى سقوط العلمانية ، بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٧٣ ص ٧٠ .
- (٨) سورة الأنعام الآية ١٢٦ .
- (٩) سورة فاطر الآية ٣٨ .
- (١٠) أنور الجندى سقوط العلمانية ص ١٢٨ .
- (١١) محمد عبده ، الاسلام والنصرانية ص ٢٠ .

